الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

قرينة طه حسين :

مسألة النساء في حياة الرجال مسألة معروفة، من الإملال وفضول الكلام أن نتخذ منها مقدمة لهذا الحديث الذي نريد أن نسوقه في هذه الكلمة. وهو حديث عن السيدة الجليلة قرينة عميد الأدب والأدباء معالي الدكتور طه حسين باشا

كثيرا ما جال بفكري أمر هذه السيدة، من حيث أثرها في حياة طه حسين وفي أدبه. لقد تحدثت إلى مراسل مجلة (آخر ساعة) في باريس، فصاغ من حديثها موضوعا ضمنه ما أفضت به إليه من معلومات تتعلق بالحياة العامة للزوجين الكبيرين، وهي معلومات نعرف بعضها ويسرنا أن نقرأ ما لم نكن نعلمه منها

إن قرينة العميد شريكة حياة مثالية، فهي شريكته المهيئة له أسباب الراحة والاطمئنان في حياته الخاصة، وهي شريكته المشاركة له في آلام نفسه وأمانيها. فقد كانت خير معين له في فترات شديدة من حياته، إذ كانت تحاول دائما أن تثبت فيه الصبر والشجاعة، وتربت إحساسه المرهف، فيمر بالشدائد كريما جلدا ظافرا. وأستطيع أن أقول — على ما ألمح من بعيد — إنها تدفعه إلى المجد، وإن ما تدفعه إليه قد جنت منه البلاد ولا تزال تجني أطيب الثمرات. جاء في حديث «آخر ساعة» ما يلي :

«ولطه حسين وزوجته ذوق واحد في كيفية قضاء أوقات فراغهما، فهما يفضلان الموسيقى أو المطالعة إذا لم يكونا مرتبطين بموعد لقضاء سهرة. وهما يحملان معهما أسطوانتهما الكلاسيكية المفضلة في جميع أسفارهما لأنهما يشعران براحة تامة في الاستماع إليها عند ما يكونان وحيدين»

وهذا جانب لا يستهان به في الحياة الزوجية، وهو التعاون على قضاء وقت الفراغ فيما يمتع ويفيد، فيذهب ما مضى من عناء وينبعث النشاط لما يأتي من أعمال. وإذا كان الرجل العادي يستريح إلى زوجته التي تعد له ما يشتهي من أطباق، فإن من أسباب السعادة التي يستشعرها مفكر ذو إحساس مرهف، زوجة تهيئ له ما يحب من غذاء العقل والروح. ومما نعلمه عن عميدنا الكبير شغفه بسماع الموسيقى الراقية، وهو يحرص على حضور حفلاتها التي تقام بمسرح الأوبرا الملكية في موسمها الشتوي السنوي بمصر، بل هو فوق ذلك يحرص على ألا تفوت متعتها من يؤثره، وسوف لا أنسى دعوته الكريمة التي تفضل فوجهها إلى لحضور بعض هذه الحفلات في الموسم القادم

وجاء أيضا في ذلك الحديث أن قرينة العميد ترى في الحركة النسائية أن على المرأة المتزوجة أن تهتم ببيتها وبأولادها وأن تترك السياسة للأراذل والفتيات

إن فكري وخيالي يذهبان إلى التساؤل : كيف كان طه حسين وكيف يكون إذا منى بزوجة من هؤلاء المتسابحات المشتغلات بكل شيء عدا بيوتهن وأولادهن؟ وكيف يكون حال الأدب والعلم والتعليم عندنا إذا ابتلي بامرأة ممن يطفئن النور في القلوب ويبعثن بأزواجهن إلى القهوات والجلوس على الطوارات فرارا من نكد الزوجة وتعب البيت؟ إنني أتصور ذلك الفراغ الهائل في عالم الأدب العربي الحديث، فيهولني التصور.. وطه حسين كتلة من المواهب والحيوية الأدبية، ولكن هذه تحتاج إلى تهيئة الجو الصالح لتنميتها، الملائم لتنفس صاحبها

إن طه حسين — وهو الإنسان الحساس — يعرف لقرينته فضلها، وقد عبر عنه بإهدائه إليها بعض مؤلفاته. ولكننا نحن الذين انتفعنا بآثار ذلك الفضل، نحن أهل هذه البلاد المصرية وكذلك إخواننا في سائر البلاد العربية، ينبغي أن نذكر تلك السيدة الجليلة، ونذكر فضلها وأثرها في أدبنا وحياتنا، وأن نقرنها بزوجها العظيم فيما قدم لنا من نتاج أدبي وعمل مثمر، فنجلها كما نجله، ونحبها كما نحبه

عهد جديد :

هذه مجموعة قصصية لكاتب قصصي جديد ، هو الشاب العراقي الأستاذ شاكر خصباك ، أنست بها في هذا المصيف المعتزل وكانت مما وصلني بالعالم الحبيب المتعب الممتع .. الذي نهرب منه ونحن إليه : عالم الأدب والفن .

أعرف نزعة شاكر مما قرأته له من قبل في (الرسالة) وفي مجموعة سابقة ، وأعرفها منه صديقا طالما التقيت به في القاهرة خلال السنوات التي قضاها طالبا بجامعة فؤاد الأول . فلما أصدر مجموعته هذه صدر هذا الصيف وقبيل رحيلي إلى المصيف ، كانت مما احتقبته ، عسى أن يذهب عن نفسي ما ألم بها فأشتاق إلى التاعب المتعة

أحب من الأدب — أكثر ما أحب — ذلك النوع الذي يتخذ كاتبه أخاه الإنسان موضوعا له ، على أنه أخوه . . أخوه كيفما كان ، لا يترفع عنه لأن الأقدار أو الأسباب الاجتماعية أرادت له الحرمان والجهل وسوء الحال ، لا يتخذه ألعوبة ولا طرفة يلهى بها ويطرف ، بل يراه أخا له يرثى لحاله ويأسو جراحه ويلتمس له — كطلق إنسان — البر والسعادة

وعند ما قلت « أعرف نزعة شاكر » كنت أعني تسديده إلى ذلك الهدف الذي أحببت أن أرافقه — بقراءته — في الاتجاه إليه

هذه قصة (عهد جديد) — وهي قصة كبيرة جعلها في مقدمة المجموعة وسماها باسمها — تعرض لنا أسرة جزار عراقي جعل الكاتب نفسه أحد أبنائه وتحدث بلسانه كدأبه في سائر القصص ، ولا بدأنه يتخذ هذه الطريقة — طريقة التحدث بضمير المتكلم — استكمالا للاندماج في جو القصة ، وهو وإن كان تخيلا إلا أن ظلال شخصية الكاتب تظهر في كثير من قصصه ، كالقصص التي يصور فيها حياة شباب يتزلون في القاهرة لدى أسر (بنسيون)

نعود إلى قصة « عهد جديد » . فنراه يصور لنا حياة تلك الأسرة تصويرا ينقلنا إلى ذلك البيت الصغير الذي نعيش فيه ، وكأننا نجالس الرجل وابنيه ونؤاكلهم على الحصير الذي يفترشونه في مدخل البيت . والحادثة التي تدور عليها القصة في غاية البساطة وهي تتلخص في أن الجزار يعامل أسرته بخشونة وغلظة ، وخاصة زوجته وابنه الكبير ، فلا يفتأ يوبخ الولد على كل تصرفاته ، ويوجه إلى أمه قوارص الكلام ، فيثور الابن وينفجر في وجه أبيه محتجا على إهانة أمه في إحدى المرات ، ويغادر المنزل والبلد « الحلة » ... وتمر أيام لا يعلمون له مقرا ولا مرتحلا ؛ حتى يهتدي الوالد إلى أنه رحل إلى كربلاء ليعمل عند قصاب هناك على أن يستدعي أمه لتعيش معه بعيدا عن أبيه الفظ الغليظ ، فيجزع الرجل ويلين جانبه ويخفض صوته ويحسن ألفاظه ، ثم يبعث بزوجته إلى كربلاء ، فتعود بولدها ، ومايراه الأب حتى يخرج من صلاته ويتجه إلى ابنه فرحا قائلا بصوت متهدج : الحمد لله على السلامة يانجم !

الوقائع الظاهرة قليلة بسيطة ، ولكن الكاتب يأخذنا إلى وقائع أعمق وأحفل ، هي التي تجري في نفوس أفراد الأسرة جميعا ، فبعد أن عرفنا شخصية كل منهم عن طريق تصرفاته جعل يحركهم عندما وقعت المحنة التي زلزلت أركان البيت ، وهي اختفاء نجم ، جعل يحرك مشاعرهم ويصف حركاتهم وفقا لطبيعتهم ، فالأخت البكاءة (أم دمعة) لاتنفك عن البكاء ، والأخت الجامدة تعبر عن التياعها لاختفاء أخيها بجمودها .. على طريقتها ! وقد أفاض في وصف المعالم الظاهرة والدقائق النفسية ، وهو في كل ذلك يسير في خطة القصة المؤدي إلى نهايتها والمعرب عن عقدتها وهي تغير الأب من حال إلى حال واستئناف الأسرة عهدا جديدا صار فيه الرجل الجافي إنسانا رقيقا .

وتتمثل في هذه القصة خصائص قصاصنا الشاب ، وأولاها نظارته الإنسانية ، فقد نقد الأب وصور حماقته نقدا وتصويرا بالغين ولكنه ما تخلى عن العطف عليه كإنسان مسكين ضل سواء السبيل ثم اهتدى أو هدي إليه

وثانية الخصائص دقة الرسم مع تجنب الفضول ، فقد عرفنا بكل شخصية من الشخصيات حتى كأنهم من معارفنا الأقدمين وحتى لأحسبني إن ذهبت إلى « الحلة » سأبحث فيها عن منزل ذلك القصاب وأسأله عن أفراد أسرته لأطمئن على حالهم جميعا ! وهو يفيض بالحديث عن أشياء كثيرة فلا يمل لأنك تشعر أنك

فى طريق القصة لم يعرج بك إلى هنا أو هناك ، وفى خلال هذا الحديث تتجسم لك أصالة الكاتب فى تصوير البيئة ، وفى إجراء الكلام على ألسنة الأشخاص بما يناسب حالهم ، فالجزار مثلا يشبه زوجته بالدجاجة ، وابنه بالخروف ؛ وأبناء هذه الأيام بالجاموس الهائج !

وثالثة الخصائص التى ألمحها فى قصص شاكر خصباك هى النقد الاجتماعى فليست واقعيته من قبيل «التصوير الفوتوغرافى» وإنما هو ينظر إلى ماوراء الظواهر لينفذ الى الحقائق ويلقى الضوء على مايعترضه من مظاهر الحياة الإنسانية ، وفى كثير من قصصه أهداف بعيدة ، كقصة « أغلال » التى يثير فيها قضية حب بين حال وإحدى طالبات المدارس ، فيصور الفارق الاجتماعى بينهما عائقا ظالما ، أليس للجمال قلب كغيره من الناس !

وأنت بعد كل ذلك تحس روح القصاص المذبة وظله الخفيف وطلاوته التى تأسرك وتشوقك الى النهاية ، على رغم ابتعاده عن الإغراب واقتعال الفاجآت

وقبل أن أنظر الى (الكفة الثانية) أحب أن أهنئ عالم الأدب العربى الحديث بهذا الشاب الذى يرجى أن يكون فيه من أعلام القصة البرزين

وهاك ما أراه من المحتويات (الكفه الثانية) :

١ — لاحظت فى بعض القصص اهتمامه بما يشبه التعليق على النهاية أو الزيادة على النهاية بما لا داعى إليه وأحيانا تفسد الزيادة الموقف ، وذلك كما فى قصة « الرهان » و « قلب كبير » فقد عنى فيها بالتعبير عن ألم بعد الخاتمة التى كان يحسن السكوت عليها ، والحالة النفسية مفهومة وينبغى أن يدع القارئ يدركها من طبيعة الموقف ، وفى قصة « بدور بنت عمى » كانت نهايتها مصرع الفتاة التى أثارت حنقه وغيرته ، وكان يحسن صنعا لو أنه ترك القارئ يفكر فى هذا المصرع وكيف وقع ، ولكنه راح يتساءل : هل اختل توازنها أو أنه دفعها بيده ؟ فأفسد الموقف احتمال دفعه إياها أى قتلها . وفى رأيى أن القصاص غير مسئول عما يحدث بعد أن يعرض صفحة معينة من الحياة هى التى انفعل بها وتعلق بها موضوعه ، فليس مطالبا بأن يجعل الأبطال يعيشون فى (النبات والنبات) ويخلفون صبيانا وبنات ، أو يلحق بهم مفرق الأحباب وهادم اللذات ...

٢ — لاحظت فى بعض القصص مجانبة لمنطق الواقع ، ففى « قصة الدخيل » سكن غرفة فى شقة تسكنها أرمل توفى زوجها منذ شهر ، اسمها « ثريا » فلم يمض الأسبوع الأول حتى تأبط ذراع الحزينة على زوجها المخلص ... وقضيا المساء فى قهوة بمصر الجديدة ، وبعد أسبوع آخر ذهبا إلى السينما ، فلو فرضنا أنها « استلطفته » بهذه السرعة استلطافا أذهب الحزن من قلبها بهذه السرعة أيضا ، أفما كان من اللائق أن تتحرج قليلا فلا تخرج معه إلى القهوة والسينما وهو متأبط ذراعها أمام الناس فى الشهر الثانى لوفاة زوجها الذى تنطق حوادث القصة بحزنها عليه ؟ كل ذلك واسمها « ثريا » لا « مرجريت » ولا « راشيل » !

٣ — أسلوب شاكر خصباك عذب حى والحوار فيه طبيعى جميل ، وهو يستكمل بذلك أدوات القصصى الفنان . ولكن : . وليس قليلا ما بعد « لكن » تعوزه السلامة اللغوية والنحوية فى كثير من المواطن ، ومن أمثلة ذلك استعماله الامتنان بمعنى الشكر فى قوله (ص ١١٠) : « والحق أننى عظيم الامتنان لذلك الطفل » والخطأ النحوى ظاهر فى قوله (ص ١١١) : « ولم أكن بأحسن حال منها » وهو يستعمل حيث للتعليل فى قوله (ص ١١٤) : « وكذلك يفقد الموقد الذى حفرته فى إحدى زوايا الغرفة صلاحيته للعمل حيث يمتلئ بالماء » ويقول « إحدى المستشفيات » فى (ص ١٣٥) بدل « أحد المستشفيات » . ويقول « الأشياء المفقودة التى يعثر بها » فى (ص ١٤٤) بدل « يعثر عليها »

وإنى آسف لهذا النقص فى كتابة صديقى شاكر خصباك ، وتدفعنى الغيرة عليه وعلى مواهبه الممتازة إلى إبدائها وأدعوه إلى أن يتألم من هذا الذى أكتبه ، كى يعمل على تمام ذلك النقص وهو من القادرين على التمام

عباس خضر